

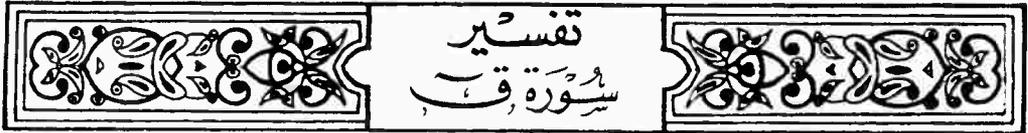
﴿قُلْ أَعْلِمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١٦)

﴿قُلْ أَعْلِمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي تخبرونه بما في ضمائركم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ .
﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧)

﴿يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ يعني الأعراب الذين يمينون بإسلامهم ومتابعتهم ونصرتهم على الرسول ﷺ يقول الله رداً عليهم: ﴿قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ﴾ فإن نفع ذلك إنما يعود عليكم، والله المنة عليكم فيه ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي في دعواكم ذلك، كما قال النبي ﷺ للأَنْصَارِ يوم حنين: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وكنتم عالة فأغناكم الله بي؟ وكلما قال شيئاً، قالوا: لله ولرسوله المن» .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨)

ثم كرر تعالى علمه بجميع الكائنات، وبصره بأعمال المخلوقات فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (١٨) .



هذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح، وقيل: من الحجرات. روى الأمام أحمد عن أم هشام بنت حارثة قالت: لقد كان تنورنا وتنور النبي ﷺ واحداً ستين أو سنة وبعض سنة، وما أخذت ﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ كان يقرأها كل يوم جمعة على المنبر إذ خطب الناس. ورواه مسلم. والقصد أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في المجمع الكبار، كالعيد والجمع لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والقيام والحجاب والجنة والنار والثواب والعقاب والترغيب والترهيب.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ (١)

تقدم الكلام عن حروف الهجاء في أول سورة البقرة ﴿وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ أي القرآن الكريم العظيم

الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [42: فصلت: 42] وجواب القسم ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: 4] وفي هذا نظر، بل الجواب هو مضمون الكلام بعد القسم، وهو إثبات النبوة وإثبات المعاد وتقريره وتحقيقه، وإن لم يكن القسم يتلقى لفظاً، وهذا كثير في أقسام القرآن كما في قوله: ﴿صَّ وَالْقُرْآنَ ذِي الذِّكْرِ﴾ [١] بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِ وَشِقَاتِي ﴿٢﴾.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٢﴾

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ ﴿٢﴾ أي تعجبوا من إرسال رسول إليهم من البشر، وليس هذا بعجيب، فإن الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس.

﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ﴿٣﴾

ثم قال عز وجل مخبراً عنهم في تعجبهم أيضاً من المعاد واستبعادهم لوقوعه ﴿أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ ﴿٣﴾ أي يقولون: إذا متنا وبلينا وتقطعت الأوصال منا، وصرنا تراباً كيف يمكن الرجوع بعد ذلك إلى هذه البنية والتركيب؟ ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ أي بعيد الوقوع. والمعنى أنهم يعتقدون استحاله وعدم إمكانه.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كَنْبٌ حَفِيفٌ﴾ ﴿٤﴾

قال تعالى رداً عليهم: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي ما تأكل من أجسادهم في البلى، نعلم ذلك ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان، وأين ذهبت، وإلى أين صارت ﴿وَعِندَنَا كَنْبٌ حَفِيفٌ﴾ أي حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب فيه أيضاً كل الأشياء مضبوطة.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ ﴿٥﴾

ثم بين تبارك وتعالى سبب كفرهم وعنادهم واستبعادهم ما ليس ببعيد فقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ ﴿٥﴾ أي وهذا حال كل من خرج عن الحق، مهما قال بعد ذلك فهو باطل، والمريج المختلف المضطرب الملتبس كقوله تعالى ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ [الذاريات: 8-9].

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ ﴿٦﴾

يقول تعالى منهاً للعباد على قدرته العظيمة التي أظهر بها ما هو أعظم مما تعجبوا مستبعبدين لوقوعه: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا﴾ أي بالمصاييح ﴿وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ يعني من شقوق، أو صدوع، كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فَأَنْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ [المالك: 3-4] أي كليل عن أن يرى عيباً أو نقصاً.

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي وسعناها وفرشناها ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ﴾ وهي الجبال لثلاث تميد بأهلها وتضطرب فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي من جميع الزروع والثمار والنبات والأنواع ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الذاريات: 49] وقوله: ﴿بَهِيجٍ﴾ أي حسن المنظر.

﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾

﴿تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٨﴾﴾ أي ومشاهدة خلق السماوات والأرض وما جعل الله فيهما من الآيات العظيمة تبصرة ودلالة وذكرى لكل عبد منيب، أي خاضع خائف وجل رجاء إلى الله عز وجل.

﴿وَرَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿٩﴾﴾

﴿وَرَزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾ أي نافعاً ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ﴾ أي حدائق وبساتين ونحوها ﴿وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾ وهو الزرع الذي يراد لِحَبِّهِ وادخاره.

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَمَّا طَلَعُ نَضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾ أي طوالاً شاهقات ﴿لَمَّا طَلَعُ نَضِيدٌ﴾ أي منضود.

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴿١١﴾﴾

﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ أي للخلق ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ وهي الأرض التي كانت هامدة، فلما نزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج من أزاهير وغير ذلك مما يحار الطرف في حسنها، وذلك بعدما كانت لا نبات فيها، فأصبحت تهتز خضراء، فهذا مثال للبعث بعد الموت والهلاك، كذلك يحيي الله الموتى، وهذا المشاهد من عظيم قدرته بالحس أعظم مما أنكره الجاحدون للبعث، كقوله عز وجل: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غانر: 57] وقوله سبحانه ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَحْيَاهُنَّ يَفْعَلْ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الاحقاف: 33] وقال سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنْ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَجِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39].

﴿كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ

وَقَوْمُ ثَيْبٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٤﴾﴾

يقول تعالى متهدداً لكفار قريش بما أحله بأشباهم ونظرائهم وأمثالهم من المكذبين قبلهم من

النقمة والعذاب الأليم في الدنيا كقوم نوح، وما عذبهم الله به من الغرق العام لجميع أهل الأرض، وأصحاب الرس ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيِّ وَشَمُودٌ ﴿٧٧﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿٧٨﴾﴾ وهم أمته الذين بعث إليهم من أهل سدوم ومعاملتها من الغور، وكيف خسف الله تعالى بهم الأرض، وأحال أرضهم بحيرة متنة خبيثة بكفرهم وطغيانهم ومخالفتهم الحق. ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴿٧٩﴾﴾ وهم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام ﴿وَقَوْمُ ثَمُودَ ﴿٨٠﴾﴾ وهو اليماني ﴿كُلُّ كَذَّبَ الرَّسُلِ ﴿٨١﴾﴾ أي كل من هذه الأمم، وهؤلاء القرون كذبوا رسولهم، ومن كذب رسولاً فكأنما كذب جميع الرسل، كقوله جل وعلا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: 105] أي وإنما جاءهم رسول واحد، فهم في نفس الأمر لو جاءهم جميع الرسل كذبوهم. ﴿فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿٨٣﴾﴾ أي فحق عليهم ما أوعدهم الله تعالى على التكذيب من العذاب والنكال، فليحذر المخاطبون أن يصيبهم ما أصابهم، فإنهم قد كذبوا رسولهم كما كذب أولئك.

﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٨٤﴾﴾

﴿أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ أي أفعجزنا ابتداء الخلق حتى هم في شك من الإعادة ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ والمعنى أن ابتداء الخلق لم يعجزنا، والإعادة أسهل، كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تَوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿٨٥﴾﴾

يخبر تعالى عن قدرته على الإنسان بأنه خالقه وعلمه محيط بجميع أموره حتى إنه تعالى يعلم ما توسوس به نفوس بني آدم من الخير والشر. وقد ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى تجاوز لأمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تعمل»: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ يعني ملائكة تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله عن العلم فإنما فسر لثلاثا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع. تعالى الله وتقدس، ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُحْرُونَ ﴿٨٦﴾﴾ [الواقعة: 85] يعني ملائكة، وكما قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [الحجر: 9] فالملائكة نزلت بالذكر، وهو القرآن بإذن الله عز وجل، وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده.

﴿إِذْ يَنْفَخُ الْمَتَلَقَاتِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿٨٨﴾﴾

﴿إِذْ يَنْفَخُ الْمَتَلَقَاتِ﴾ يعني الملكين اللذين يكتبان عمل الإنسان ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي مترصد.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿٨٩﴾﴾

﴿مَا يَلْفِظُ﴾ أي ابن آدم ﴿مِنْ قَوْلٍ﴾ أي ما يتكلم من كلمة ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ أي إلا ولها من يرقبها ويكتبها، لا يترك كلمة ولا حركة.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ﴿١٩﴾

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ ﴿١٩﴾ وجاءت أيها الإنسان سكرة الموت بالحق، أي كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمترى فيه ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص، ولا فكاك ولا خلاص. والمخاطب الإنسان من حيث هو، وقيل: الكافر، وقيل: غير ذلك.

﴿وُفِّعَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ ﴿٢٠﴾

﴿وُفِّعَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾ ﴿٢٠﴾ وذلك يوم القيامة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته، وانتظر أن يؤذن له» قالوا: يا رسول الله كيف نقول؟ قال ﷺ: قولوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل» فقال القوم: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ ﴿٢١﴾ أي ملك يسوقه إلى المحشر، وملك يشهد عليه بأعماله.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ والمخاطب بذلك الكافر، أو كل أحد من بر وفاجر، لأن الآخرة بالنسبة إلى الدنيا كالليقظة والدنيا كالمنام، أو المخاطب بذلك النبي ﷺ، والمعنى على هذا لقد كنت في غفلة من هذا القرآن قبل أن يوحى إليك، فكشفنا عنك غطاءك بإنزاله إليك فبصرك اليوم حديد، والظاهر من السياق خلاف هذا، بل الخطاب مع الإنسان من حيث هو. والمراد بقوله: ﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ يعني من هذا اليوم ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي قوي، لأن كل أحد يوم القيامة يكون مستبصراً حتى الكفار في الدنيا يكونون يوم القيامة على الاستقامة لكن لا ينفعهم ذلك، قال الله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾ [مریم: 38] وقال عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 12].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ ﴿٢٣﴾

يقول تعالى مخبراً عن الملك الموكل بعمل ابن آدم أنه يشهد عليه يوم القيامة بما فعل، ويقول ﴿هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ أي معتد محضر بلا زيادة ولا نقصان. قال مجاهد: هذا كلام السائق، يقول: هذا ابن آدم وكلنتي به قد أحضرته، وقد اختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد، وله اتجاه وقوة. فعند ذلك يحكم الله تعالى في الخليقة بالعدل، فيقول:

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَيْنٍ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ عَيْنٍ﴾ ﴿٢٤﴾ ولغة بعض العرب يخاطبون المفرد بالثنائية، كقوله:

فإن تزجراني يا ابن عفان أنزجر وإن تتركاني أحرم عرضاً ممنوعاً والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرضة الحساب، فلما أدى الشهيد عليه أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير ﴿كُلُّ كَفَّارٍ﴾ أي كثير الكفر والتكذيب بالحق ﴿عَبِيدٍ﴾ معاند للحق، معارض له بالباطل مع علمه بذلك.

﴿مَنَاعٍ لِلْحَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ﴾ (٢٥)

﴿مَنَاعٍ لِلْحَيْرِ﴾ أي لا يؤدي ما عليه من الحقوق، ولا يبر فيه ولا صلة ولا صدقة ﴿مُعْتَدٍ﴾ أي فيما ينفقه ويصرفه يتجاوز فيه الحد. قال قتادة: معتد في منطقته وسيره وأمره. ﴿مُرِيبٍ﴾ أي شاك في أمره، مريب لمن نظر في أمره.

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾ (٢٦)

﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ أي أشرك بالله فعبد معه غيره ﴿فَأَلْفِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ﴾.

﴿قَالَ فَرِيئُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ (٢٧)

﴿قَالَ فَرِيئُهُ﴾ هو الشيطان الذي وكل به ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ﴾ أي يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافراً، يتبرأ منه شيطانه فيقول: ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ﴾ أي ما أضلته ﴿وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي بل كان هو في نفسه ضالاً، قابلاً للباطل، معانداً للحق.

﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ (٢٨)

﴿قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الرب عز وجل للإنسي وقرينه من الجن، وذلك أنهما يختصمان بين يدي الحق فيقول الإنسي: ربنا هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان ﴿رَبَّنَا مَا أَطْعَيْتُهُ﴾ فيقول الله لهما: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي عندي ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ أي قد أعذرت إليكم على السنة الرسل، وأنزلت الكتب، وقامت عليكم الحجج والبيئات والبراهين.

﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (٢٩)

﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ يعني قد قضيت ما أنا قاضٍ ﴿وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ أي لست أعذب أحداً بذنب أحد، ولكن لا أعذب أحداً إلا بذنبه بعد قيام الحجة عليه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠)

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ (٣٠) في البخاري عن النبي ﷺ: «يلقى في النار فتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط».

﴿وَأَرْلَفْتَ الْجَنَّةَ لِمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٣١)

﴿وَأَرْلَفْتَ﴾ أي أدنيت وقربت ﴿الْجَنَّةَ لِمُتَّقِينَ﴾ من المتقين ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة، وليس ببعيد لأنه واقع لا محالة، وكل ما هو آتٍ قريب.

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ (٣٢)

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي رجاع تائب مقلع ﴿حَفِيظٍ﴾ أي يحفظ العهد فلا ينقضه ولا ينكته.

﴿مَنْ حَسِبَى الرَّحْمَنَ بِالنَّيِّبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ (٣٣)

﴿مَنْ حَسِبَى الرَّحْمَنَ بِالنَّيِّبِ﴾ أي من خاف الله في سره حيث لا يراه أحد إلا الله عز وجل، كقوله ﷻ: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه». ﴿وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ أي ولقي الله عز وجل يوم القيامة بقلب منيب سليم إليه خاضع لديه.

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلْمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (٣٤)

﴿أَدْخُلُوهَا﴾ أي الجنة ﴿بِسَلْمٍ﴾ أي سلموا من عذاب الله عز وجل، وسلم عليهم ملائكة الله ﴿ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ أي يدخلون في الجنة، فلا يموتون أبداً، ولا يظعنون أبداً، ولا يبيغون عنها حولاً.

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٣٥)

﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ أي مهما اختاروا وجدوا ومن أي أصناف الملاذ طلبوا أحضر لهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ كقوله سبحانه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: 26] أي والزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ (٣٦)

يقول تعالى: وكم أهلكتنا قبل هؤلاء المكذبين ﴿مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ أي كانوا أكثر منهم وأشد قوة، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها، ولهذا قال تعالى ههنا: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ ضربوا في الأرض يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها ﴿هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ﴾ أي هل من مفر كان لهم من قضاء الله وقدره، وهل نفعهم ما جمعوه، ورد عنهم عذاب الله إذ جاءهم لما كذبوا الرسل، فأنتم أيضاً لا مفر لكم، ولا محيد، ولا مناصر، ولا محيص.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (٣٧)

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ أي لعبرة ﴿لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي لب يعي به، أي عقل ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي استمع الكلام فوعاه، وتعلقه بعقله، وتفهمه بلبه.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ . . .﴾ فيه تقرير للمعاد، لأن من قدر على خلق السماوات والأرض ولم يع بخلقهن قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ أي من إعياء ولا تعب ولا نصب.

﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني المكذبين، اصبر عليهم واهجرهم هجراً جميلاً ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ وكانت الصلاة المفروضة قبل الإسرائئتين قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ وعلى أمته حولاً، ثم نسخ في حق الأمة وجوبه، ثم بعد ذلك نسخ الله تعالى ذلك كله ليلة الإسرائئ بخمس صلوات، ولكن منهن صلاة الصبح والعصر فهما قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي فصل له، كقوله ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [الإسرائئ: 79] ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾ هو التسيح بعد الصلاة.

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ يأمر الله تعالى ملكاً أن ينادي على صخرة بيت المقدس: أيتها العظام البالية، والأوصال المتقطعة، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ﴾ يعني النفخة في الصور التي تأتي بالحق الذي كان أكثرهم فيه يمترون ذلك يوم الخروج أي من الأجداد.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤْتِيهِمُ الْوَيْلَ وَاللَّيْلَ الْمَصِيرَةَ ﴿٤٣﴾﴾

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِيهِمْ وَنُؤْتِيهِمُ الْوَيْلَ وَاللَّيْلَ الْمَصِيرَةَ ﴿٤٣﴾﴾ أي هو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه، وإليه مصير الخلائق كلها، فيجازي كلًا بعمله، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

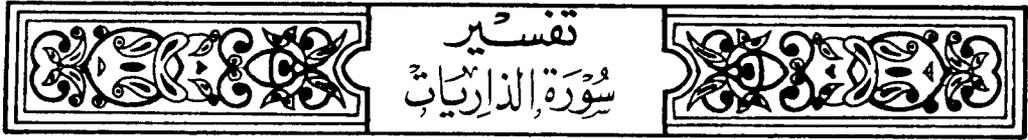
﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا لَيْسِيرٌ ﴿٤٤﴾﴾

﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ وذلك أن الله عز وجل ينزل مطراً من السماء ينبت به أجساد الخلائق كلها في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء، فإذا تكاملت الأجساد أمر الله تعالى إسرأفيل فينفخ في الصور، وقد أودعت الأرواح في ثقب الصور، فإذا نفخ إسرأفيل فيه خرجت الأرواح تتوهج بين

السماء والأرض فيقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي لترجعين: كل روح إلى الجسد الذي كانت تعمره، فترجع كل روح إلى جسدها، فتدب فيه كما يدب السم في اللدغ وتنشق الأرض عنهم فيقومون إلى موقف الحساب سراعاً مبادرين إلى أمر الله عز وجل ﴿مُهَيَّيْنِ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾﴾ [القمر: 8]. وفي صحيح مسلم «أنا أول من تنشق عنه الأرض» ﴿ذٰلِكَ حَسْرَتُنَا يٰٓبٰسِرٌ﴾ أي تلك إعادة سهلة علينا، يسيرة لدينا، كما قال جل جلاله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: 50] وقال سبحانه ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَافٍ وَجِدَةً﴾ [لقمان: 28].

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِدِ ﴿٤٥﴾﴾

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ أي نحن علمنا محيط بما يقول لك المشركون من التكذيب، فلا يهولك ذلك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي ولست بالذي تجبر هؤلاء على الهدى، وليس ذلك مما كلفت به، أو لا تجبر عليهم، والقول الأول أولى. ﴿فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعَبِدِ﴾ أي بلغ أنت رسالة ربك، فإنما يتذكر من يخاف الله ووعيده، ويرجو وعده.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَمِيْلَاتِ وَقِرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُتَسِّبَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾

عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صعد منبر الكوفة فقال: لا تسألوني عن آية في كتاب الله تعالى، ولا عن سنة عن رسول الله ﷺ إلا أنباتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا ﴿١﴾﴾ قال: الريح، قال: ﴿فَالْحَمِيْلَاتِ وَقِرًا ﴿٢﴾﴾ قال: السحاب، قال: ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾﴾ قال: السفن، قال: ﴿فَالْمُتَسِّبَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾﴾ قال: الملائكة.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ ذَاتِ الْمُبْكِبِ ﴿٧﴾ إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْلِيفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفِكُ عَنْهُ مَن أُوْفِكَ ﴿٩﴾ قُلِ الْمُتَرَاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَقٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾﴾ أي لخبر صادق ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾﴾ وهو الحساب ﴿أَي لَكَائِن لَّا مَحَالَةَ﴾ ذات الجمال والبهاء والحسن والاستواء، أو ذات طرائق. ﴿إِنَّكَ لَنِي قَوْلٍ مُّخْلِيفٍ ﴿٨﴾﴾ أي إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول ﴿لَنِي قَوْلٍ مُّخْلِيفٍ﴾ أي مضطرب، لا يلتزم ولا